

ثالثاً

الدعوة والثقافة الإسلامية

المضامين الدعوية لخطبة الحاجة

د. أمل بنت محمد العجلان

الأستاذ المساعد في المعهد العالي للدعوة والاحتساب قسم الدعوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

البريد الإلكتروني: Aalaglan@imamu.edu.sa

(قدم للنشر في ١٢/٠٢/١٤٤٢هـ؛ وقبل للنشر في ٠٢/٠٨/١٤٤٢هـ)

المستخلص: بحث المضامين الدعوية لخطبة الحاجة بحث (يلقي) الضوء على أهمية السنة النبوية في الدعوة الإسلامية ثم (يبين) أهمية الخطابة في الإسلام وأوقاتها وأصولها ووجوب مراعاة حق المدعو في إيصال الدعوة وحرص الداعية على اغتنام الفرص في الدعوة كما (يوضح) المقصود بكل من الحمد والاستغفار والاستعانة والاستعاذة و(يؤكد) على الإيمان بأن الهداية بيد الله وحده وعدم الحزن والاسئ على من ضل، ثم (يرز) الجوانب الدعوية في الآيات القرآنية الكريمة في تلك الخطبة عن طريق فتح باب الأمل أمام المدعو بالدعوة ووجوب اليقين بعالمية الدعوة وأن التقوى والعمل الصالح أساس العدالة في الإسلام كما (يختم) بتوضيح مصادر الدعوة الإسلامية والنهي عن البدعة وبيان خطورتها.

الكلمات المفتاحية: الدعوة، خطبة الحاجة، الخطابة.

Advocacy contents of Khutbah al-Hajah

Dr. Amal bint Mohammed Al-Ajlan

*Assistant Professor at the Dawah Department of the Higher Institute for Dawah & Ihtsab,
Imam Muhammad ibn Saud Islamic University
Email: Aalaglan@imamu.edu.sa*

(Received 29/09/2020; accepted 15/03/2021)

Abstract: This research aims to examine the advocacy contents of Khutbah al-Hajah and shed the light on (addresses) the importance of the Sunnah in Islamic Dawah. Thereafter, it demonstrates the importance of the sermon in Islam, its times and principals, the necessity of observing the right of the audience to receive Dawah, and the preacher's keenness to seize opportunities in Dawah. It explains the meaning of the praise, seeking forgiveness, asking for assistance, and seeking refuge. Further, it confirms that the guidance is from Allah alone, and not to grieve nor grief for those got lost. It also demonstrates Dawah aspects in the Holy Quranic verses in this sermon through offering the hope for the audience by Dawah, need of certainty in the universality of Dawah, and that piety and righteous deeds are the basis of justice in Islam. Finally, the research is concluded by clarifying the sources of Islamic Dawah and interdiction against the heresy explaining its dangerous.

Keywords: Dawah, Khutbah al-Hajah, sermon.

* * *



المقدمة

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدَ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار^(١).

إن مما يُعلم أن هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة، حيث يشرع للمسلم أن يأتي بها عند الحاجة مثل عقد النكاح والموعظة ونحو ذلك، ولكنها اشتهرت عند أهل

(١) هذه خطبة الحاجة كما في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال: علمنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة الحاجة

(الحمد لله نحمده ونستعينه)، وقد صححه الشيخ الألباني رضي الله عنه.

انظر: سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن أشعث، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٢:

١٤٢٧هـ، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، حديث رقم (٢١١٨)، (ص ٣٦٨).

العلم أنها تقال عند عقد النكاح، ولهذا يذكرون حديث ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب النكاح، وخطبة الحاجة على وجازة ألفاظها تتضمن معاني عظيمة وكلمات جامعة^(١)، وفيها إظهار العبودية والافتقار والتذلل لله تعالى لذا فقد رغبت الباحثة أن تحلل تحليلاً موجزاً للمضامين تلك الخطبة الجامعة دعويًا، راجية من الله أن يوفقها لتنال بعضاً من شرف المشاركة والإسهام في هذا المجال المبارك، سائلةً الله أن يجعله عملاً متقبلاً وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم وأن يغفر لها ما فيه من زلل وتقصير، إنه سميع مجيب.

* أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تأتي أهمية الموضوع من ارتباطه بثلاثة جوانب هي:

- أولاً: أهمية الدعوة، وقد تولاهها الله تعالى بنفسه^(٢)، ثم جعلها وظيفة الأنبياء والمرسلين^(٣)، بل أصبحت أحسن الأقوال وأشرفها^(٤)، كما قد ربط خيرية هذه الأمة بقيامها بهذا الواجب^(٥).

- ثانياً: وسائل الدعوة، وهي كل ما يستعين بها الداعي من أسباب مشروعة على

(١) فهذه الخطبة وإن لم نرى التزام النبي صلى الله عليه وسلم بها عند افتتاح خطبته ولم يلتزم بها صحابته الكرام رضي الله عنهم لكن من غير التوفيق تركها لخطبة ينشؤها الخطيب بنفسه ولذا من المؤكد مشروعية هذه الخطبة بين يدي كل عمل صالح.

(٢) قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

(٣) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغْيَانَ﴾ [النحل: ٣٦].

(٤) قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣].

(٥) قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

تبليغ الدعوة إلى الله تعالى على نحو نافع مثمر، وقد ربط الله ﷻ الأسباب بالمسببات، فأمر بالأخذ بالوسائل المؤدية إلى الغايات، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

- **الثالث: الخطابة،** التي كانت لها الأهمية الكبرى عند العرب في الجاهلية حيث كانت تقام لها المتنديات والأسواق، فلما جاء الإسلام، زادت تلك الأهمية كيف لا، وقد أوتي الرسول ﷺ جوامع الكلم وتحديى ببلاغة القرآن العرب والعجم، فهو الفصيح الخطيب، بل إن المناسبات الشرعية في الإسلام غالباً تُشرع فيها الخطب، خطبة الجمعة والعيدين، ويوم عرفة.

أما عن أسباب اختيار الموضوع فتكمن فيما يلي:

١ - عدم وضوح أهمية خطبة الحاجة ومشروعيتها عند كثير من المسلمين بصفة عامة والخطباء بصفة خاصة، مما يجعلهم يتركون الافتتاح بها في خطبهم، أو يتجاوزون الحد في ذلك، حيث يعدونها من الفروض التي لا تترك في خطبهم، لذا ساغ توضيح هذا الأمر عن طريق ذكر مشروعية هذه الخطبة.

٢ - الرغبة في التعرف على المضامين الدعوية لخطبة الحاجة للإفادة منها في طريق الدعوة، خاصة مع صلة الموضوع بالتخصص العلمي للباحثة.

٣ - عدم وجود دراسة دعوية خاصة لخطبة الحاجة.

كل تلك الأسباب جعلتني أختار هذا الموضوع، وقد استعنت بالله في كتابة هذا البحث وأرجو من الله عونه وتوفيقه وأن يتقبل جهدي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي ما كان فيه من تقصير.

* ثانيًا: أهداف البحث:

يهدف البحث إلى ما يلي:

- إلقاء الضوء على أهمية السنة النبوية في الدعوة الإسلامية.
- الوصول إلى أهمية الخطابة في الإسلام وأوقاتها وأصولها.
- توضيح المقصود بكل من الحمد والاستغفار والاستعانة والاستعاذة وسندهم الشرعي.
- التعريف بعالمية الدعوة وسندها الشرعي ومعالمها في هذا الدين.
- إبراز الجوانب الدعوية في آيات خطبة الحاجة.
- بيان أسباب خطورة البدعة على الدين.

* ثالثًا: تساؤلات البحث:

في هذه الدراسة ستسعى الباحثة إلى الإجابة على مجموعة من التساؤلات تمثل الإجابة عليها

- في النهاية أهداف البحث، وهذه التساؤلات هي:
- ما المضامين الدعوية لخطبة الحاجة بصفة عامة؟
- ما المضمون الدعوي للجزء الأول من خطبة الحاجة؟
- ما المضامين الدعوية للآيات الواردة في خطبة الحاجة؟
- ما المضمون الدعوي للنهي عن الابتداع في الدين؟

* رابعًا: مشكلة البحث:

يعالج البحث المضامين المستفادة من خطبة الحاجة والتي تعود على جميع أركان العملية الدعوية من داعية ومدعو وموضوع ووسائل وأساليب لتحقيق الثمرة

منها في الدنيا والآخرة.

*** خامسًا: الدراسات السابقة:**

يوجد ارتباط كبير بين علم الدعوة والسنة النبوية إلا أن هذا النص (خطبة الحاجة) بصفة خاصة لم يدرس من الناحية الدعوية، ولم تجد الباحثة دراسة خاصة في استنباط المضامين الدعوية منها.

*** سادسًا: منهج البحث:**

يقوم البحث على المنهج الاستنباطي:

هو «ما يقوم على مقدمات مسلم بصحتها بصفة نهائية أو مؤقتة ولا بد أن يترتب عليها نتائج تنتج عنها بالضرورة»^(١)، وهذا المنهج يمكن الباحثة من استنباط المضامين الدعوية من خطبة الحاجة.

*** سابعًا: تقسيمات البحث:**

• المقدمة، وتشتمل على:

- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.
- أهداف البحث.
- تساؤلات البحث.
- مشكلة البحث
- تقسيمات البحث.

(١) أساليب البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية، محمد راكان الدغمي، (ص ٨٨)، مكتبة الرسالة - الأردن، ط ٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).

- **المبحث الأول:** المضامين الدعوية العامة لخطبة الحاجة، ويتضمن أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** من معالم الدعوة العناية بالسنة.
- **المطلب الثاني:** أهمية الخطابة في الإسلام.
- **المطلب الثالث:** حرص الداعية على اغتنام الفرصة في الدعوة.
- **المطلب الرابع:** مراعاة حق المدعو في إيصال الدعوة.

- **المبحث الثاني:** المضامين الدعوية الخاصة لخطبة الحاجة، ويتضمن ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** المضمون الدعوي لمطلع خطبة الحاجة، ويتضمن سبعة فروع:

- ١- الاعتراف بأن الله هو الذي يستحق الحمد وحده.
 - ٢- الأمر بالاستعانة بالله وحده.
 - ٣- فضل الاستغفار وأثره على الدعوة.
 - ٤- وجوب الاستعاذة بالله ﷻ من كل شر.
 - ٥- الإيمان بأن الهداية بيد الله وحده.
 - ٦- الحث على عدم الحزن والأسى على من ضل.
 - ٧- أهمية شهادة التوحيد في الدعوة إلى الله.
- **المطلب الثاني:** المضمون الدعوي للآيات الواردة في خطبة الحاجة، ويتضمن ستة فروع:
 - ١- التأكيد على الأمر بالتقوى وأثره على الدعوة.

- ٢- فتح باب الأمل أمام المدعو بالتوبة.
 - ٣- وجوب اليقين بعالمية الدعوة.
 - ٤- العدالة في التكاليف بين المرأة والرجل.
 - ٥- وضوح الغاية في الدعوة.
 - ٦- القول وسيلة من وسائل الدعوة
- المطلب الثالث: المضمون الدعوي لخاتمة خطبة الحاجة، ويتضمن:
- ١- وضوح مصادر الدعوة الإسلامية.
 - ٢- النهي عن الابتداع في الدين.
- الخاتمة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول

المضامين الدعوية العامة لخطبة الحاجة

ويتضمن أربعة مطالب:

* المطلب الأول: من معالم الدعوة العناية بالسنة.

خطبة الحاجة حديث نبوي شريف لا بد من العناية به تعلمًا وتعليمًا كغيره من الاحاديث النبوية الشريفة التي تمثل مع القرآن الكريم الحصن الحصين والدرع الواقى من الشرور والفتن فكما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلِهِمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

حيث بيّن الله ﷻ في هذه الآية الكريمة أن على نبينا الكريم الاقتداء بالأنبياء السابقين - عليهم الصلاة والسلام- فهو أمر لأمته أيضاً بالأخذ من سنته والاستفادة من الأمور اللازمة لكل من يحمل هم الدعوة ونصرتها، كما قال سبحانه آمراً لنا باتباع هديه وسلوك نهجه والتأسي به ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَآلْيَوْمَ الْآخِرِ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

إنه القدوة لكل خير، ولا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرنا منه، إنه دعا لكل خير، بأقواله وأفعاله وتقريراته، إن الله ملأ القلوب به علماً وبيقيناً وطهر به الأخلاق من جميع الرذائل واستكملت به جميع الفضائل.

ثم لقد مرت العصور تلو العصور وسنة المصطفى ﷺ مرفوعة الراهية، واضحة المعالم، هيأ لها أئمة هدى قاموا بالذب عن هذه السنة ومحاربة البدعة (فلا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى

يأتي أمر الله^(١).

إن السنة النبوية وما حصل في السيرة الشريفة معين لا ينضب، يرتوي منه كل من أراد السلامة من الأخطاء والنجاة من الضلال، ولذا قال ﷺ: (وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها سوا)^(٢).

لما لهذه السنة من أهمية عظمى في الإسلام، حيث تشترك مع القرآن في كونهما أصل دين الإسلام بل إنها أقيمت مقام البيان حيث يقول ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ولذا فحاجة الأمة إلى معرفة تلك السنة، وأحداث هذه الحقبة فوق كل حاجة، فلا تستقيم السبل ولا تستوي إلا بذلك.

ومن تلك العناية بالسنة النبوية الشريفة بحث هذا الموضوع لاستنباط المضامين الدعوية من جزء من أجزاء السنة النبوية وهو خطبة الحاجة.

* المطلب الثاني: أهمية الخطابة في الإسلام.

لقد اختص الله هذه الأمة بشعائر عظيمة، جعلها أعلامًا لنا من بين سائر الأمم، ومن ذلك اختصاصها بيوم الجمعة، فقد فضّل بعض الأوقات على بعض، وشرف بعض الليالي والأيام وجعلها عيدًا لعباده المؤمنين، فيوم الجمعة له شرف وفضل

(١) صحيح مسلم، دار الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ، كتاب الجهاد، باب قوله لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، الحديث (٤٩٨٨)، (ص ٦٤٧).

(٢) سنن ابن ماجه، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١: ١٤٢٣هـ، (ص ١٥)، قال الألباني حديث حسن.

على غيره من أيام الأسبوع، وهو خير الأيام، حيث ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة)^(١)، كما جاء أيضًا في الحديث الذي ورد في صحيح البخاري: (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى)^(٢).

ومما امتاز به هذا اليوم الفضيل تضمنه لصلاة الجمعة التي هي من أكد فروض الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين، وتحتوي هذه الصلاة على الخطبة، خطبة صلاة الجمعة.

وللخطابة في ديننا الإسلامي أهمية عظمى ومنزلة كبرى، حيث تتنوع الأوقات وتتعدد الأماكن التي كان يخطب ﷺ فيها، بالإضافة لخطبة الجمعة وعيدي الفطر والأضحى وعند استقبال الوفود، بل كان يخطب في المسلمين ويحثهم على الجهاد في سبيل الله ويخطب أمام المتخاصمين ويخطب في موضوعات شتى، سواء كان ذلك في المسجد أو في غير المسجد، وسواء كان ذلك على المنبر أو على الأرض أو حتى على البعير.

وعرّفت الخطبة بأنها: قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم^(٣).

(١) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، حديث رقم (٨٥٤)، (ص ٣٧٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الدهن للجمعة، حديث رقم (٨٨٣)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٥: ١٤٢٨هـ، (ص ١٦٧).

(٣) التعريفات للجرجاني دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٢٣هـ، (ص ٩٩).

كما عرف بعض المعاصرين الخطابة بأنها فن من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معاً^(١).

وقيل بأن الخطبة: كلام منتخب مختار متصف بحسن الرصف وجودة السبك وقوة التأثير لدعوة الناس إلى الخير، وثنيتهم عن ضده وفق أحكام الإسلام ومقاصده لتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة^(٢).

وكل هذه التعريفات تدل على المعاني المتقاربة للخطبة، كما تدل على عظم منزلة الخطبة في حياة نبينا محمد ﷺ ولذا يجب التأكيد على أن للخطبة أصولاً ومقومات يجب مراعاتها، منها ما يتعلق بالخطبة، ومنها ما يتعلق بالخطيب.

ومن ذلك أن على الخطيب أن يحرص على اختيار الموضوع بما يتلائم مع أوليات الدعوة، فالخطيب كالطبيب يبحث عن أمراض المجتمع وعلله، ويصف لهم الدواء بحكمة ومعرفة، ومع اختيار الموضوع يجب أن يعرف الخطيب كيف يحضّر خطبته متقياً ألفاظاً واضحة وأسلوباً جيداً، ومقدمة جاذبة، ومن أفضل ما يبدأ به الخطيب خطبته حمد الله وتعظيمه والثناء عليه بما هو أهله، حيث كان ﷺ يفتح جميع خطبة بالحمد لله وكان يتشهد بعد الحمد والثناء على الله.

(١) الخطابة في الإسلام، للدكتور مصلح سيد بيومي، ط ٢: ١٤٠٨ هـ، مكتبة المجد العربي، القاهرة، (ص ١١).

(٢) كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة للشيخ عبد الرحمن السديس مكتبة إمام الدعوة، مكة المكرمة، ط ١: ١٤٢٣ هـ، (ص ٨).

*** المطلب الثالث: حرص الداعية على اغتنام الفرصة في الدعوة.**

إذا كانت خطبة الحاجة تشرع في خطبة النكاح ولكن لا تقتصر عليها، فإن هذا يدل على أن الدعوة إلى الله واجب شرعي لا يقيدته زمان أو مكان يجب القيام به متى ما استطاع الداعية ذلك، لذا يجب على الدعاة أن تكون الدعوة هدفه ومقصده الذي يسعى له متى ما تسنى له ذلك، فيدعو إلى الله في جميع حالاته مغتنماً الفرصة قبل أن تفوت والوقت قبل أن يضيع لأن ذلك أدهى للإجابة وأسرع في التبليغ.

والداعية عليه أن يغتنم وقت إقبال المدعو إذا كان ذلك ممكناً قبل أن يدبر ونشاطه قبل كسله وفرحه قبل ترحه، لقول الرسول ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)^(١)؛ فلا يفوت فرصة الدعوة إلى الله؛ لأن ما يتيسر الآن قد لا يتيسر غداً، ولهذا أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالعمل في وقت فراغه بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، أي فاعمل في ساعة تتفرغ فيها ما تستفيد فيه لآخرتك^(٢)، وفي صحيح البخاري في حديث ابن عباس رضي الله عنه: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ)^(٣)، ومعنى الحديث في غاية الوضوح، حيث يرشد النبي ﷺ أن الفراغ مغنم ومكسب لا يعرف قيمته إلا من عرف غايته في الوجود، قال

(١) صحيح البخاري دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٥: ١٤٢٨ هـ، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم الحديث (٣٩)، (ص ٢٣).

(٢) انظر: تفسير السعدي المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ، (ص ٩٢٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم الحديث (٦٤١٢)، (ص ١١٧٢).

تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والدعوة إلى الله من العبادة التي يجب أن نغتم فيها الصحة والفراغ والوقت المناسب لها. ويعني ذلك اغتنم الأعمال الصالحة في الشباب قبل أن يحول بينك وبينها الهرم وكذا عند الصحة والغنى والفراغ.

ولأننا نجد هذه المعاني العظيمة في خطبة الحاجة التي يسن أن يستفتح بها الخطب، كل ذلك لأن ترك التبليغ عندما تحين الفرصة قد يضيع ما لا يمكن تعويضه، ولهذا فعلى الداعية أن يكون تام الجاهزية للدعوة في كل زمان ومكان.

* المطلب الرابع: مراعاة حق المدعو في إيصال الدعوة.

الخطابة وسيلة تستعمل لعدة أغراض وأهداف لكن ما يقصد هنا هو ما كان لإيصال الدعوة لأن من حق المدعو أن يُقصد فيؤتى ويُدعى، أي أن الداعية يأتيه ويدعوه إلى الله تعالى، ولهذا أرسل الله ﷺ رسله تشریفًا لحقهم وإقامة للحجة عليهم، فقرر الشارع عدم تعذيب قوم حتى تقام الحجة عليهم ويعطوا حقهم في الدعوة، قال تعالى: ﴿ لَعَلَّأ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، يقول ابن جرير رحمته الله: «أرسلت رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين لئلا يحتج من كفر بي وعبد الأنداد من دوني، وأضل عن سبيلي بأن يقول إن أردت عقابه: لولا أرسلت إلينا رسولاً ففتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى»^(١).

ولا أدل على ذلك من فعل النبي ﷺ حين كان يعرض نفسه على القبائل في

(١) تفسير الطبري المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، هجر للطباعة، مصر، ط: ١، ١٤٢٢هـ، (٧/٦٩٣).

مواسم الحج والعمرة يدعوهم للتوحيد، بشهادة أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، وهذا الاجتهاد في الدعوة وبذل كل وسيلة يمكن أن يستعان بها في الدعوة من مظاهر الشفقة والرفق بالمدعو؛ لأنه بسبب الرحمة بالمدعو يتجه الدعوة إليه في كل مكان ليلبغوه تلك الدعوة، فقد قال رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مصورًا شفقتة عليّ أمتي: (إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعل الفراش، وهذه الدواب تقع في النار)^(١)، فالداعية إن كان يرى المدعو بقلب رحيم مشفق عليّ أنه مريض أراد إنقاذه لن ينفك عن دعوته ليلاً ونهارًا سرًا وجهرًا؛ لأن في تلك الدعوة النجاة من النار والفوز بالجنة للمدعو، وهذا أقصى مبتغاه، وسينال ذلك الداعية أجره عليّ تلك الدعوة، قال رسول الله ﷺ: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا)^(٢)، وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم)^(٣)، وفي آخر: (من دل عليّ خير فله مثل أجر فاعله)^(٤).

- (١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٠].
- (٢) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم الحديث (٢٦٧٤)، (ص ١٢٨٥).
- (٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي رضي الله عنه، رقم الحديث (٣٧٠١)، (ص ٦٧٦).
- (٤) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله، رقم الحديث (١٨٩٣)، (ص ٩٣٨٦).



المبحث الثاني

المضامين الدعوية الخاصة لخطبة الحاجة

ويتضمن ثلاثة مطالب:

* **المطلب الأول: المضمون الدعوي لمطلع خطبة الحاجة:**

ويتضمن سبعة فروع:

- **أولاً: الاعتراف بأن الله هو الذي يستحق الحمد وحده.**

بدأت خطبة الحاجة بأن الحمد لله والحمد هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها^(١)، والحميد هو الذي لا يحمد ولا يشكر غيره، وهو المحمود في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

والحمد أعلى مقامات الإيمان حيث يعترف بأن الله هو الذي يستحق الحمد دون سواه، فيجب التعبد لله بحمده، والثناء عليه، ومعنى الحمد الثناء على الله ﷻ لما اتصف به من صفات الكمال والجمال والجلال^(٢).

وقد يكون الحمد قولياً وهو حمد اللسان وثنائه على الله ﷻ بما أثنى على نفسه على لسان أنبيائه، أو حمداً فعلياً وهو الإتيان بالأعمال البدنية ابتغاء وجه الله تعالى^(٣). والحمد أبلغ منازل الإيمان، بل إن الحمد أجمل صفة تحلى بها النبي ﷺ

(١) التعريفات للجرجاني (ص ٨٠).

(٢) شرح أسماء الله تعالى الحسن لحصة الصغير، دار القاسم، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ، (ص ١٠٩).

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعم، للشيخ صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، دار الوسيلة، جدة، ط ١: ١٤١٨هـ، (٥/ ١٧٥٥).

ودعائه من بعده، حيث تجعله هذه الصفة مطمئناً لقضاء الله وقدره، بل يوصله ذلك الحمد لمنزلة الرضا التي تنفي عن العبد صفة الاعتراض على قضائه وقدره. ولذا كان السلف رضوان الله عليهم يحبون دائماً أن يقدم المرء بين يدي خطبته وكل أمر طلبه حمد الله تعالى والثناء عليه ﷺ والصلاة على رسول الله ﷺ.

- ثانياً: الأمر بالاستعانة بالله وحده.

وبعد الحمد جاءت الاستعانة وهي طلب العون من الله، ويطلب من المخلوق بما يقدر عليه من أمور، فالله هو المستعان الذي يستعين به عبده على دفع الشر وعلى جلب الخير، ويثق به ويعتمد عليه في نيل مطلوبه^(١). وفي الاستعانة ثقة بالله واعتماد عليه؛ لأننا قد نثق بأحد من البشر لكن لا نعتمد عليه، وقد نعتمد عليه ولا نثق به، أما إذا اجتمعت الثقة مع الاعتماد فهذه هي الاستعانة وهي عبادة تصرف له وحده لا شريك له.

وقد ورد هذا الاسم لله ﷻ في موضعين هما قوله تعالى: ﴿ فَصَبَّرْ جَمِيلٌ ۗ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿ قَلِيلٌ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، بل لقد جاءت في صيغة الفعل في سورة الفاتحة التي نقرأها عدة مرات في اليوم والليلة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة: ٢-٥]. والعلاقة بين العبادة والاستعانة علاقة وثيقة من عدة أوجه فالعبادة سبب للاستعانة وبداية لها، والاستعانة جزء متفرع من العبادة كما قال بذلك عدد كبير من العلماء.

(١) تفسير الطبري، المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (١٠/٥٨٤).

ومما جاء في السنة النبوية عن الاستعانة ما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف)^(١).

كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)^(٢)، ولما للاستعانة بالله من أهمية في الدعوة فقد كانت من أول ألفاظ خطبة الحاجة فاستعانة الداعية بالله تجعله يواجه مشاق الدعوة ومصاعبها وهو يشعر بالقوة لأنه لا يواجه تلك الأمور وحده، فمعه ربه - سبحانه - وذلك ينزع عنه الشعور بالعجز؛ لأنه سيسأل الله صلى الله عليه وسلم أن يسهل عليه أمر هذه الدعوة، ويطلبه أن يبقئ قادراً على تلك المهمة، مهمة الدعوة إلى الله في المستقبل وأن يجدد له تلك القدرة حالاً بعد حال.

- ثالثاً: فضل الاستغفار وأثره على الدعوة.

بعد الحمد والاستعانة في أول الخطبة جاء الاستغفار فالله صلى الله عليه وسلم هو الغفار والغفور الذي يستر ذنوب عباده، وهو يتجاوز عن خطاياهم ومعاصيهم، ولذا فالإنسان يستغفره أي يطلب الغفران منه فيدعوه بأن يستر ذنبه ويغطيه بالعمو عنه.

- (١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب (٤٩)، حديث رقم (٢٥١٦) مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، وقد صححه الألباني رضي الله عنه، (ص ٥٦٦).
- (٢) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث رقم (٢٦٦٤)، (ص ١٢٧٩).

ولقد أمر الله ﷻ عباده بالاستغفار في عدد كبير من الآيات القرآنية الكريمة في قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والاستغفار صفة من صفات الأنبياء والصالحين كما في أواخر سورة البقرة قال تعالى: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ؕ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ؕ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٤٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦]، بل لقد دعا الأنبياء أقوامهم للاستغفار قال تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

لكن يجب التنبيه على عدم الاكتفاء بالاستغفار باللسان، فمجرد التلفظ بقول (استغفر الله) مع الشرك أو الفسق أو إصرار على معصية لا يكفي؛ لأن غفران الله ﷻ (قبول الاستغفار) يرتبط بالتوبة والعمل الصالح - بعد مشيئة الله وتوفيقه - قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، فلا يصح أن يقول الإنسان بلسانه أستغفر الله أو أتوب إلى الله وهو مصر على معصية الله، ولا يصح أن يقول ذلك وهو متهاون غير مبال بما جرى منه من معصية، ولا يصح أيضاً أن يقول ذلك وهو عازم على أن يعود إلى معصية ربه ومخالفته.

كما لا يقبل الله استغفار مشرك أو فاسق قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿ [النساء: ٤٨]، وقال ﷺ: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُكُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

المسلم إذا استغفر الله ابتعدت عنه شياطين الإنس والجن، وزالت الوحشة بينه وبين الله ﷻ بل إن محبة الله تحصل له فتسهل عليه الطاعة ويجد حلاوة فيها، كما يتيسر له الرزق وتحل عليه الرحمة، قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]، ولهذا فالاستغفار مشروع في كل وقت وحين، لكن هناك أوقات وأحوال مخصوصة يكون للاستغفار فيها مزيد فضل كالاستغفار في الأسحار وبعد الصلاة، وكالخطيب في بداية خطبته، حيث يكون عرضة لأن يقع منه نقص وخلل في خطبته بسبب الغفلة والسهو، فالاستغفار زادٌ بالغ الأهمية للداعية إلى الله، قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وما للاستغفار أثر على الدعوة كان من أول ألفاظ خطبة الحاجة حيث يشرح الاستغفار صدر الداعية - بإذن الله - ويدفع عنه شعور الكبر والزهو بالنفس؛ لأن إحساسه بالتقصير يدفع لمزيد من الاجتهاد في الدعوة.

- رابعاً: وجوب الاستعاذة بالله ﷻ من كل شر.

بعد أن بدأت الخطبة بالحمد ثم الاستعانة والاستغفار جاءت الاستعاذة وهي اللجوء إلى الله ﷻ والاعتصام به من شر كل ذي شر، والمستعاذ أو المعيد هو الله وحده ﷻ بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، فنستعيذ به من كل شر، وهذا الشر له عدة أنواع، إما أن يكون هذا الشر هو الشيطان بصفة مباشرة أو غير مباشرة كالذنوب وقعنا فيها أو شر وقع فيها غيرنا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه الحسنة والسيئة حين قال: «وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت وهي مضرّة جاز أن يقال هي مما أصابه من السيئات وهي بذنوب تقدمت، وعلى كل تقدير فالذنوب التي يعملها هي من نفسه وإن كانت مقدرة عليه فإنه إذا كان الجزاء الذي هو مسبب عنها من نفسه فعمله الذي هو ذلك الجزاء من نفسه بطريق الأولى وكان النبي صلى الله عليه وآله يقول في خطبته: (نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا)»^(١).

وفي حين أن سورة الناس جاءت للاستعاذة من الوسوسة وهو شر داخلي من عمل الشيطان، جاءت سورة الفلق للاستعاذة من عدة أمور منها شر جميع المخلوقات التي لها شر، وشر الليل، وشر النفاثات وشر الحاسد الجاحد وكلهم من عمل الشيطان، ولأنه قد ورد في مطالع خطبة الحاجة الاستعاذة من كل شر فالاستعاذة تكون حصناً حصيناً للدعاة من الشيطان الرجيم، بل هو صمام أمان لهم، حيث يندفع الأثر النفسي السيئ الناجم عن الفخر بالنفس والإعجاب بها، كما أنها تقي الداعية من ضرر الغرور، إذ يربط قلب المسلم الداعية دائماً بالله؛ لأن الوقاية خير من العلاج، كما أن تلك الاستعاذة تزيل غضب الداعية عند مقابلة دعوته بالرفض وتريح نفسه؛ لأنها تقيه من الانتصار لنفسه، ورغبة الانتقام لها، فمن استعاذ بالله واعتصم به أعاده الله، وهي أيضاً من أسباب عصمة المدعو من الشيطان لئلا يقع أو يستمر بالوقوع في المعاصي والذنوب فتكون له درعاً واقياً وحصناً منيعاً من الشهوات والشبهات التي يزينها عدوه الشيطان الرجيم.

(١) الحسنة والسيئة لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، (ص ١٥٠).

- خامساً: الإيمان بأن الهداية بيد الله وحده.

بعد البدء بالحمد ثم الاستعانة والاستغفار والاستعاذة كان الإيمان بأنه لا مضل لمن هدى الله فالهداية بيد الله ﷻ، وليست بيد أحد من خلقه، وليس على الداعية إلا أن يبذل جهده في الدعوة، أما التوفيق فهو بيد الله ﷻ؛ لأن الهداية تنقسم إلى هداية دلالة وإرشاد، وهي وظيفة النبي ﷺ كما قال ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ووظيفة الدعاة من بعده، أما هداية التوفيق فهي لله ﷻ وحده وليست لأحد من البشر، وأكبر مثال على ذلك عدم هداية أب سيدنا إبراهيم ﷺ وابن نوح ﷺ حيث دعوهم وكرروا دعواتهم ولكن لم يستجاب لهم، وكذلك عم نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فعن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: (قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة)، قال لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك^(١)، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدَى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فإذا علم الداعية ذلك قرت نفسه وهنأ باله لأنه سيعلم أن ما بيده هو العمل على إصلاح مدعويه وليس صلاحهم، أما المدعو الذي يعلم أن الهداية بيد الله وحده سيُلح بالدعاء وسيسأله ليلاً ونهاراً سرّاً وجهراً أن يهديه لكل ما يحبه ويرضاه لأنه لا سبيل للسعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة إلا بتلك الهداية كما أنه سيطيع أوامره ويجتنب نواهيه التي وردت بالنصوص الشرعية حيث لا سبيل لحصول الهداية إلا بها فمن ابتغى الهداية بغيرها أضله الله.

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قوله: لا إله إلا الله، حديث رقم (٢٥)، (ص ٤٣).

- سادساً: الحث على عدم الحزن أو الأسى على من ضل.

أراد الله لرسوله ﷺ أن يكون رحيماً بالناس رؤوفاً بهم عفوياً عنهم متواضعاً لهم حليماً عليهم، يحرص على هدايتهم ويعز عليه ما يعتنهم، لكن عليه ألا يأسى عليهم، فلا يشفق عليهم إن لم يستجيبوا لدعوته واتخذوا طريق الضلال.

ولقد أمر الله ﷻ بذلك في سورة النحل فقال: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال جل شأنه: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨]، وأنزل أيضاً في سورة الشعراء، قوله: ﴿ لَعَلَّكَ بِنِخَعٍ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، كما أنزل قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨]. ففي كل تلك الآيات القرآنية رحمة من الله ﷻ بالدعاة، فالدعاة مأمورين بالشفقة والرحمة والرفق والحرص على إخراج المدعويين من الضلال إلى الإيمان، لكن عليهم أيضاً ألا تضيق نفوسهم وتذهب أنفسهم حسرات على من لم يشفق على نفسه بالاستجابة للدعوة عناداً أو تكبراً أو تقليداً أعمى. فالواجب فقط هو اتخاذ أسباب الدلالة والإرشاد، أما التوفيق فهو بيد الحي القيوم. وهذه لم تذكر نصاً بخطبة الحاجة ولكنها تترتب على ما سبق وهو الإيمان بأن الهداية بيد الله وحده.

- سابعاً: أهمية شهادة التوحيد في الدعوة إلى الله.

ختمت الخطبة مطلعها الأول بكلمة التوحيد وهي الشهادة لله بالوحدانية والإقرار بالألوهية وللنبي ﷺ بالرسالة، وهي الشهادة بنفي العبادة عما سوى الله وإثباتها لله ﷻ، وهي أفضل الذكر فلاجلها خلق الخلق وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب وأعدت دار الثواب والعقاب.

والشهادة للنبي ﷺ بالرسالة تعني الإيمان بأنه رسول الله ﷺ وتجب طاعته واتباعه والافتداء به وتوقيره ومحبته، فهذه الشهادة هي أول أركان الإسلام، بل هي الأصل في الإسلام ولا تكتمل تلك الشهادة إلا بتحقيق معرفة الله ورسوله والإيمان بهما، بأن يعرف الله بأسمائه وصفاته، ويعرف الرسول ﷺ وسيرته العطرة لأن تلك المعرفة هي غاية المعارف وأشرف المقاصد بل إن الوصول إليها غاية المطالب. ثم الإيمان بذلك كله، إذ تعد هذه الشهادة أول الدين وبداية الهداية، ولا يستقر العبد في دين الإسلام ما لم ينطق بهما بل لم يكن النبي ﷺ يتهاون أو يتساهل أبداً إذا تعلق الأمر بهذه الشهادة، شهادة التوحيد، حيث تقوم على اعتبار الشيء حقاً أو باطلاً وهذا ما لا يصلح معه التهاون والتجاوز، وما بعدها يبنى عليها، وكل من قرأ في السيرة النبوية يعلم أن النبي ﷺ قد شرع بدعوة الناس للتوحيد وقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ولم يتجاوز هذه القضية إلا في المجتمع المدني بعد أن استقرت هذه الحقيقة في القلوب.

فإذا علم الداعية ذلك فإنه سيبدأ بدعوة الناس للتوحيد، توحيد الله ﷻ وتحذير الناس من الشرك لأن التوحيد هو أساس الدين وهو أهم ما يجب أن يبدأ به الدعاة إلى الله تعالى، ولا أدل على ذلك من قول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ قبل ذهابه لليمن: (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات...)؛ فلا بد أولاً من توحيد الله والإخلاص له وترك الشرك به وهذا

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم (١٣٩٥)، (٣/٣٠٧).

أول وأهم واجب ولهذا بدأ به النبي ﷺ ولم يتجاوزه إلا بعد أن استقرت العقيدة في القلوب.

* المطلب الثاني: المضمون الدعوي للآيات الواردة في خطبة الحاجة.

ويتضمن ستة فروع:

- أولاً: التأكيد على الأمر بالتقوى وأثره على الدعوة.

بدأت جميع آيات خطبة الحاجة الثلاث بالأمر بالتقوى وهذا يؤكد على أهميته العظمى وأثره الكبير على الدعوة، فعن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يدور حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه)^(١).

تظهر في هذا الحديث الشريف صورة بيانية رائعة، تصور الذي يقترب من حدود الله ومحارمه عن طريق الشبهات وتشبهه بالراعي الذي يرعى إبله لا ينبغي أن يقترب مما حماه الله، ومنع الرعي فيه؛ لأنه إذا رعى حول الحمى واقترب منه ستندفع إبله للحمى وتنتهكه بالرعي فيه، وسيغضب عليه الملك بعد ذلك، فإذا حضر الملك الرعي حول الحمى ومنعه حتى لا يقترب أحد من الحمى ولم يكتف بحظر الرعي في ذات الحمى كل ذلك أفضل للرعاة، والله المثل الأعلى فقد نهى عن كل ما يؤدي إلى حرام، وأمر بكل ما يؤدي للواجب كما قرر مبدأ الوقاية قبل العقوبة، فلم يحرم الزنا فقط بل شرع من التدابير الوقائية ما يبعد عن هذا الحرام، فأوجب الحجاب وندب إلى الاستئذان، وحرم الخلوة، ونهى عن النظرة، وهكذا كل محارم الله، فيشرع لها أحكام

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢)، (ص ٢٥).

وقائية، فيتجنب النفوس أسباب الإغراء والغواية، ولا يستجيب لذلك إلا من اتقى لأن التقوى هي التي تحفظهم بأمر الله فيبتعدون عن كل طريق يوصل إلى منكر، ويتجهون لكل طريق يوصل إلى معروف. وفي هذا الزمن تكثر الفتن ويلتبس الحق بالباطل وتقل القدوة، بل واختلط الهدى بالضلال، فلا سبيل للخروج من تلك الأزمة إلا بالتقوى، والتقوى فقط، وذلك يكون بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولذلك شواهد جلية في سائر العصور، فقد دانت لأمتنا الإسلامية المشارق والمغرب واجتمعت كلمتها يوم أن كانت متمسكة بإسلامها الحق ومهتدية بنور الوحي ومقتفية بآثار النبوة.

وللتأكيد على هذه القضية في خطبة الحاجة جاء الأمر بالتقوى أربع مرات فقد بدأت الآيات الثلاث بقوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾، و﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ بل إن الآيات من سورة الأحزاب جاءت الأمر بالتقوى في لفظين ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾، و﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾.

فإنه ﷺ ينادي الناس عامة أو يخص المؤمنين به ليتفئوا إلى رحاب التقوى وليقبلوا عليه، فيبتعدوا عن شؤم الذنوب والمعاصي ليحصل لهم ما وعدهم به، والدعاة أولى الناس بهذه التقوى، فهم من حمل رسالة أفضل الأنبياء والرسل.

ولذلك فعلى المسلم أن يتقي الله بفعل المأمورات ويتعد عن النواهي ويتبع هدي محمد ﷺ والتأسي بسيرة صحبه الكرام والسلف الصالح والحذر من مخالفة أمره والعدول عن منهجه القويم؛ لأن من أرخى لنفسه الزمام بترك الواجبات وفعل المحظورات قل إيمانه فالإيمان ليس بالتمني، لكنه ما وفر في القلب وصدقه العمل، ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وبقدر إيمان الداعية، يكون نجاحه في دعوته؛ لأن ذلك يجعله يخلص النية في

تلك الدعوة، فلا يطلب إلا رضا الله، فيحب الله ويكثر من عبادته وذكره، ويحرص كذلك على النوافل حرصه على الواجبات ويتجنب المكروهات اجتنابه للمحرمات.

- ثانيًا: فتح باب الأمل أمام المدعو بالتوبة.

كان الأمر في آية آل عمران بعد التقوى بأنه: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهذا يدل على أهمية التوبة فهي من أجل وأهم الأوامر التي دعا إليها الإسلام، بل وحث على الالتزام بها التوبة؛ لأن الإنسان دائم الخطأ، ولذا فهو بحاجة مستمرة إلى الرجوع إلى الحق وتجديد التوبة.

ولذلك نجد أن الله ﷻ قد امتدح في كثير من الآيات الكريمة التوابين، مثل قوله تعالى: ﴿ وَهَدَىٰ إِلَيْهِ مَنَ أَنْابَ ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٧١]، ويقول تعالى أيضا: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١].

كما قد حث على التوبة وشجع عليها في نصوص كثيرة أولها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥]، والملائكة أيضا يدعون للتائب بالمغفرة، يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

ومن هذه النصوص أيضا ما يرويه البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل، يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا - أي بيده - فذبه عنه، ثم قال: سمعت

رسول الله يقول: (الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية^(١) مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهب راحلته، فطلبها، حتى إذا اشتد الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته)^(٢).

إن فتح باب الأمل أمام المدعو بالتوبة من مظاهر الرفق والرحمة به؛ لأن الإنسان ضعيف معرض للخطأ في كل زمان ومكان، يقول الرسول ﷺ في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (كل بني آدم خطاء وخير الخاطئين التوابون)^(٣)، كما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)^(٤).

فالتوبة هي الطريق الوحيد للرجوع للاستقامة والتقوى؛ لأنه لو لم يفتح الله أمام خلقه هذا الباب لأدى ذلك لعدم نجاة أحد منهم، كما أدى إلى الطغيان والتجبر عند يأس العصاة من التوبة والمغفرة، لذلك فلا يصح للدعاة أن يأسوا مدعويهم من الصلاح ولا يقنطوهم باستحالة رجوعهم للاستقامة مهما تبادوا في المعصية، إذ على

(١) أرض دوية: هي الأرض غير موافقة للإقامة فيها، وقيل هي الداوية الفقيرة، الخالية، المغارة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم (٦٣٠٨)، (ص ١١٥٥).

(٣) سنن الترمذي، (ص ٥٦٢)، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب (٥٩)، (ص ٥٦٣) وقد حسنه الألباني.

(٤) صحيح مسلم (٩/ ٢٧٥)، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، حديث رقم (٢٧٤٩)، (ص ١٣١٤).

الدعاة أن يفتحوا لهم رجاء التوبة والإصلاح حتى الموت.

- ثالثاً: وجوب اليقين بعالمية الدعوة.

إن الإشارة في آية النساء إلى خلق جميع البشر من نفس واحدة دليل من أدلة عالمية الدعوة فمن خصائص الدعوة الإسلامية العالمية، أي أنها جاءت للعالمين كافة أنسهم وجنهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

والدين الإسلامي هو دين خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد ﷺ فلا نبي بعده، ولذا فقد كانت رسالته شاملة للناس جميعاً وكان من الواجب إيصال هذه الرسالة وتلك الدعوة إلى جميع أقطار الدنيا، وقد وجه دعوته إلى الناس كافة، عن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى^(١). ويقول ابن كثير رضي الله عنه: أمر الله ﷺ رسول الله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة^(٢).

وحين نصر الأنصار رسول الله ﷺ، وهم أهل المدينة التي هاجر إليها، وليس أهله وقبيلته وعشيرته، كان ذلك تأكيداً لعالمية الدعوة وأنها غير مرتبطة بأرض معينة

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله، حديث رقم (٤٦٣٢)، (ص ٨٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير، المسمى (تفسير القرآن العظيم) دار ابن حزم، بيروت، ط: ١، ١٤٢٠هـ، (ص ١٩٥٩).

أو قوم معينين، بل من نصرها فهو أحق بها، وأهل لها، فهذه العالمية صورة من صور هذه الدعوة المشرقة.

وعلى الدعوة اليوم - رجالاً ونساء - إن أرادوا أن يقتدوا بصحابة رسول الله ﷺ الكرام الذين نصرُوا هذه الدعوة وآمنوا بعالميتها أن يسهموا بأي جهد في سبيل دينهم وأمتهم إذ عليهم أن يحاسبوا أنفسهم فيسألوها ماذا قدموا لدينهم وأمتهم وعليهم بأن تصبح العالمية هي الهاجس الأكبر والهدف الأسمى لهم، فتقام المؤتمرات العالمية وتستخدم وسائل الاتصال الحديثة لتذكير المسلمين بهذه القضية، ومحاولة إيصال رسائل تعريفية من خلالها لبيان الإسلام وأهدافه ومحاسنه وغاياته لملايين البشر.

- رابعاً: العدالة في التكليف بين المرأة والرجل.

للإسلام نظرة مميزة في المساواة بين المرأة والرجل، فكما أن المرأة شريكة للرجل في هذه الحياة، فهي شريكته أيضاً في التكليف الشرعية وفي الثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، ولها أيضاً ما للرجل من الأجر العظيم والمغفرة من الله ﷻ حيث قال جل شأنه: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

فالإسلام يعدل بين الذكر والأنثى في أداء الحقوق، فلا بد أن يأخذ كل منهما حقه كاملاً دون ظلم، بل لقد خصها تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ

وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿الأحزاب: ٣٥﴾.

وحين خص الشارع المرأة هنا بالذكر ﴿وَحَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] فقد قصد في أوامره ونواهيه استقامة النفوس ولم يقصد الاستقصاء والإحصاء فقد راعى جميع الناس بظروفهم وأحوالهم، فوضع لكل ظرف وحال يعتري هذا الإنسان ما يتناسب معه من أحكام، والواجب هو الالتزام بالأوامر والنواهي دائماً، لكن قد يطرأ على العباد أمور يصبح معها هذا الالتزام شاقاً وحرَجاً، فكان من الصالح سقوط الإثم وإباحة المحظور عن ذلك، وهذه هي الأمور التي فرق الشارع فيها بين الرجل والمرأة.

- خامساً: وضوح الغاية في الدعوة.

لقد جاءت آيات الأحزاب مبشرة بالجزاء الذي يناله المسلم إن هو استجاب للأوامر السابقة فصالح الأعمال وغفران الذنوب والفوز العظيم من أعظم ما يُبشر به المؤمن وهذا مما يدل على وضوح الغاية في الدعوة وهو من معالم التيسير في الدعوة، فمن اليسير على الداعية أن يمضي قدماً في دعوته إذا كانت واضحة الغاية مرسومة الخطى، فهذه الدعوة هدفها واضح وغايتها محددة، وهي تحقيق طاعة الله ورسوله بإعلاء كلمة لا إله إلا الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بدلائلهم إلى الإيمان الصحيح؛ لأن الله ﷻ خلق الخلق لعبادته ولم يتركهم سُدىً، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ينقل القرطبي رحمته الله عن علي رضي الله عنه: «وما خلقت الجن والانس إلا لآمرهم بالعبادة»^(١)، فإذا أدرك المسلم هذه الغاية إدراكاً كاملاً، انطلق بحياته من منطلق هذه

(١) تفسير القرطبي، المسمى (الجامع لأحكام القرآن)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، =

الغاية العظيمة فسهلت عليه هذه الطاعة، فإذا أراد الفوز وتحقيق الفلاح فعليه أن يلتزم بالطريق الذي بينته الآية الكريمة، والسير على هذا الهدى، حتى يصل إلى النتيجة المرجوة والمؤملة.

- سادسًا: القول وسيلة من وسائل الدعوة.

أمرنا الله ﷻ في آية الأحزاب في خطبة الحاجة بأن نقول قولاً سديداً فالقول وسيلة فطرية يستعين بها الداعي على تبليغ الدعوة إلى الله، وقد استخدمها جميع الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، لكن يجب أن يكون قولاً مشروعاً صادقاً، كما ذكر في الآية الكريمة: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وأن يكون لطيفاً؛ لأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه خاصة أن الله ﷻ قد أمر موسى وهارون ؑ بأن يذهبوا لفرعون ويلينا له القول فقال سبحانه: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٤]، وأن يطابق القول العمل، فقد قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣]، كما يجب أن يكون بيناً واضحاً فقد كان النبي ﷺ: إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم^(١) كما روى عنه أنس بن مالك ؓ مع التنبيه إلى قضية الحذر من فتنة القول لقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

١٤٢٣هـ، (١٧/٥٠).

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، حديث رقم (٩٥)، (ص ٣٦).

لكن يجب التأكيد على خطأ القول بأن وسائل الدعوة توقيفية لا يجوز فيها الاجتهاد بحجة أن الدعوة من العبادات، والعبادات توقيفية، فينسحب حكم الدعوة على حكم وسائلها؛ لأن في ذلك القول الخاطيء حصر للوسائل الدعوية وتقليلها مما يسبب حرجاً عظيماً على الدعاة.

والدليل على خطأ هذا القول قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «إن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل»^(١)، وبهذا تكون جميع وسائل الدعوة المباحة في أصلها في هذا العصر هي من سنة النبي رحمته الله حتى وإن لم تكن في عصره؛ لأنها تحقق أهدافه في الدعوة ولا يمكن تحقيق هذه الأهداف دون استعمال وسائل عصرية مناسبة لتطور العصر، فالوسائل ليس لها حد شرعي، فكل ما أدى إلى المقصود فهو مقصود، ما لم يكن منهياً عنه بعينه، فإن كان منهياً عنه بعينه فلا نقره للنهي عنه.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ، (٢٨١ / ١٠).

المطلب الثالث

المضمون الدعوي للجزء الأخير من خطبة الحاجة

ويتضمن:

* أولاً: وضوح مصادر الدعوة الإسلامية.

إن مما يُعلم أن أول مصادر هذه الدعوة كتاب الله ﷻ وهدى محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُنَا سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

يقول الشيخ القاسمي ﷺ: «دل قوله تعالى: ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ على مزية هذا الدين الحنيف ونهجه الذي انفرد به وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين، وكرّ عليها بالحجة، وخاطب العقل واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان، وما فيها من الأحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها لتصل إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه»^(١).

جاءت هذه الدعوة مخالفة لغيرها من الدعوات، دعوة واضحة لم تترك مجالاً لتخبط الخطي أو الاجتهادات الفردية؛ لأنها جاءت على بصيرة أي على علم ونور وهدى ويقين.

فالدعوة لا تقوم إلا بمصادر محددة واضحة وأسس قويمّة، كما أن جهل الإنسان أو تجاهله لمصادر هذه الدعوة والأسس التي تقوم عليها يجعله يدعو على

(١) تفسير القاسمي المسمى (محاسن التأويل) دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨ م.

غير بصيرة متخبط الخطي، يدور في تيه وفراغ، فيصعب عليه تحقيق هدفه، بل قد يضر من حيث يريد النفع، وقد يسيء وهو يريد الإحسان.

ومصادر الدعوة الإسلامية التي يجب على المسلم أن يستند عليها ويسترشدها ويستمد منها دعوته ظهرت جلية في قوله: «فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ»، كما ظهرت في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ لليمن، وقال له: (كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟) قال: اقضي بما في كتاب الله، قال: فإن لم يكن فبسنة رسول الله ﷺ، قال اجتهد وإني لا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره ثم قال: (الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله).^(١)

* ثانيًا: النهي عن الابتداع في الدين.

نهى الرسول ﷺ عن البدعة بقوله: (وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة)^(٢)، بل كان يشتد ويغضب عند سماعه بالبدعة أو رؤيته لها، وذلك لأمرين:

١- البدعة طعن في كمال الدين، فلسان حال المبتدع يقول: إن هذا الدين لم يكمل فيبقى عليه هذه الشريعة التي ابتدعتها، والله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما، أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا

(١) سنن أبي داود، كتاب القضاء، باب اجتهاد الرأي في القضاء، رقم الحديث (٣٥٩٢)، وقد ضعفه الألباني رضي الله عنه، (ص ٦٤٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث (٨٦٧)، (ص ٣٨٣).

يحتاجون إلى زيادة أبدأ^(١)، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذه أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله الله ولا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الذين تمت عليهم النعمة^(٢)».

٢- لأن خطأ المبتدع لا ينحصر عليه ولكنه يتعداه لغيره، فيصور لغيره من عوام المسلمين أن هذه البدعة من عقائد هذا الدين أو عباداته فتنتشر ويعم الضلال.

ومن أبرز المواقف التي تبين شدته ﷺ مع البدع قصة الثلاثة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرادوا أن يزيدوا حظهم من التعبد ورصيدهم من الحسنات فذهبوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فربما كان يتعبد عبادة في بيته لا يفعلها بين الملأ حتى لا يشق عليهم، فلما أخبروا بما كان منه ﷺ رأوا ذلك قليلاً، وكان يكفيهم ذلك الذي ظنوه قليلاً، ولكنهم التمسوا لأنفسهم مسوغاً في استحداث تعبد جديد فقالوا: هذا رسول الله ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فأين نحن منه؟ ثم قال أحدهم: أما أنا فأقوم ولا أنام، وأما الآخر فقال: وأما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: وأما أنا فلا أتزوج النساء، فلما سمع رسول الله ﷺ عن شأن هؤلاء

(١) تفسير الطبري المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، (٨/ ٨٠).

(٢) تفسير ابن كثير، (ص ٥٧٩).

الثلاثة قام خطيباً قائلاً: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم الله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)^(١) كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند البخاري.

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣)، (ص ٩٥٥).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على النبي الأمي إمام المرسلين وسلم تسليمًا كثيرًا فله الحمد والمنة أولاً وآخرًا على إتمام هذا البحث الذي قمت من خلاله بتوضيح (المضامين الدعوية لخطبة الحاجة) وبذلت الجهد ما استطعت بتوفيق من الله، وأسأل الله أن ينفعني به وينفع جميع المسلمين فإنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وإذ وصلنا نهاية هذا البحث فإن من المناسب أن أسرد أبرز النتائج التي توصلت لها، وهذه النتائج على النحو التالي:

١- أهمية هذا البحث تأتي من ارتباط موضوعه بثلاثة جوانب هي أهمية الدعوة ووسائل الدعوة ثم الخطابة.

٢- من حرص الداعية على اغتنام كل الفرص في الدعوة كانت أهمية الخطابة ومراعاة حق المدعو في إيصال الدعوة.

٣- من الرحمة بالدعاة الاعتقاد بأن الهداية بيد الله وحدة والنصوص الشرعية التي حثت على عدم الحزن والأسى على من ضل.

٤- يجب اليقين بعالمية الدعوة، وأنها جاءت للعالمين كافة والدين الإسلامي هو دين خاتم الأنبياء والرسول ولذا يجب العناية بإيصالها لكافة الأقطار والأمصار.

٥- الدعوة الإسلامية دعوة واضحة تامة كاملة لم تترك مجالاً لتخبط الخطي أو الاجتهادات الفردية لذا فقد كان التحذير من الابتداع في الدين شديدًا وصريحًا.

أما أهم التوصيات التي أوصي بها في ختام هذا البحث، كما يلي:
أولاً: أوصي نفسي والدعاة بتقوى الله في السر والعلن فهي وصية للأولين
والآخرين.

ثانياً: على الدعاة في العصر الحاضر التمسك بالكتاب والسنة على فهم السلف
الصالح والاهتمام بها تعلمًا وتعليمًا باعتبارهما الحصن الحصين والدرع الواقي من
الشُرور والفتن، ومحاولة تطبيقهما ما أمكن ذلك.

ثالثاً: على الدعاة إلى الله في العصر الحاضر أن يربطوا الناشئة بالعلم الشرعي
وبالعلماء الراسخين، فالعلم الشرعي هو الضمان بعد توفيق الله من الانحراف في
التصور والفكر.

رابعاً: كما أوصي كليات الدعوة بمزيد من العناية بالبحوث التأصيلية، وإتاحة
الفرصة للباحثين للدراسة فيها وتقصي الدروس الدعوية منها، وعدم إهمال أي نص
فيها.

هذه أهم النتائج والتوصيات التي توصلتُ لها وأسأل الله سبحانه التوفيق
والسداد إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أساليب البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية، محمد راكان الدغمي، ص ٨٨، (مكتبة الرسالة - الأردن، ط ٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط ١، بيروت، دار عالم الكتب، ١٤١٥هـ.
- الاعتدال في الدعوة، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، الرياض، ط ١، ١٤١٥هـ.
- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، دار المجمع، جدة، ط ٣، ١٤٠٧هـ.
- البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت.
- تأملات دعوية في السنة النبوية، عبدالله بن وكيل الشيخ، دار إشبيلية، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ.
- التعريفات للجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- تفسير ابن كثير، المسمى (تفسير القرآن العظيم)، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- تفسير السعدي المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- تفسير الطبري المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، هجر للطباعة، مصر، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- تفسير القاسمي المسمى (محاسن التأويل) دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨م.
- تفسير القرطبي، المسمى (الجامع لأحكام القرآن)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ١٤٢٣هـ.
- التفسير القيم لابن القيم الجوزية، محمد القرني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الحسنة والسيئة لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الخطابة في الإسلام للدكتور مصلح سيد بيومي، ط ٢، ١٤٠٨هـ، مكتبة المجد العربي، القاهرة.

- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء للطباعة والنشر.
- روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام، الرياض، ط ٣، ١٤٢٤هـ.
- زاد المعاد ابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٣، ١٤٠٦هـ.
- سنن ابن ماجه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن أشعث، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٢، ١٤٢٧هـ.
- سنن الترمذي، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، الرسالة، ط ١١، ١٤١٧هـ.
- شرح أسماء الله الحسنی على ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن علي القحطاني، دار الرؤية، دمشق، ط ٣، ١٤٢٧هـ.
- شرح أسماء الله تعالى الحسنی لحصة الصغير، دار القاسم، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- شرح النووي المطبوع على صحيح مسلم، دار أبي حيان، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ.
- الصحوة الإسلامية، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض، ١٤٢٦هـ.
- صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٥، ١٤٢٨هـ.
- صحيح مسلم، دار الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.
- طبقات المفسرين لأبي فضل السيوطي، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة.
- فوات الوفيات والذيل عليها، حمد شاکر الکتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.
- كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة للشيخ عبد الرحمن السديس مكتبة إمام الدعوة، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ.
- معجم المؤلفين عمر كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ.
- موسوعة نضرة النعيم للشيخ صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، دار الوسيلة، جدة، ط١، ١٤١٨هـ.

List of Sources and References

- Abdul-Baqi, Muhammad Fuad (1422 AH). al-Mu'jam al-mufahras li-alfāz al-Qur'an al-karīm.
- Al Ketbi, Hamad Shaker. (1973AH). Fwat Al-Wafeiat
- Al Qasimi. Jamal al-Din (1978 AD). The great interpretation known as the interpretation of al-Qasimi
- al-Bukhārī, Muhammad ibn Ismā'īl Sahih. (1428 AH). Sahih al-Bukhari.
- Al-Deghimi, Muhammad (1417 AH). Scientific research methods and sources of Islamic studies.
- Al-dhahabi. (1417 AH). Sayr Iielam Alnubala
- al-Hajjaj, Muslim. (1419 AH). Sahih Muslim.
- Al-Nawawi (1415 AH). Explanation of Al-Nawawi printed on Sahih Muslim.
- Al-Qahtani, Saeed. (1427 AH). Explanation of the beautiful names of God in the light of the Book and Sunnah.
- Al-Qarni, Muhammad. The valuable interpretation of Ibn al-Qayyim al-Jawziyyah.
- Al-Sudais, Abdul-Rahman. (1416 AH). The collection of fatwas of Sheikh al-Islam Ibn Taymiyyah.
- Al-Suyuti, Abu Fadl. Layers of commentators.
- Al-Tirmidhi. Sunan al-Tirmidhi.
- Al-Uthaimin, Muhammad. (1415 AH). Al-eatedaal fi Al-Dawaa
- Al-Uthaimin, Muhammad. (1426 AH). Islamic awakening.
- Al-Zarkali, Khair al-Din. (2002 AD). Al-Alam.
- Aljurjani. (1423 AH). Definitions.
- As-seghaier, Hessah. (1420 AH) Explanation of the names of God Almighty.
- Asqalani, Ibn Hajar. (1415 AH). Al-Isabah fi tamyiz al Sahabah
- Bayoumi, master reformer. (1408 AH). Rhetoric in Islam.
- Cordoba. (Whole to the provisions of the Qur'an). 1423 H.
- Ebn Taimia. (1407 AH). Amr bi-al-Ma'ruf wa-al-Nahi 'an al-Munkar.
- Ebn Taimia. Hasanah wa-al-Sayiah
- ibn al-Ash'ath, Abi Dawood. (1427 AH). Sunan Abi Dawood
- Ibn al-Qayyim. (1406 AH). Zad Al-Maad
- Ibn Humayd, Šālih ibn 'Abd Allāh (1418 AH), Mawsu'at Nadrat al-Na'im.
- Ibn Kathir (1420 AH). Interpretation of the Great Quran.
- Ibn Kathir. Al-Bidaya wa al-Nihaya
- Ibn Majah. (1423 AH). Sunan Ibn Majah.
- Kahalah, Omar. Mu'ajim al-Muallifin
- Mubarakpuri, Safiur **Rahman**. 1424 AH). Rodhat Al-Anwaar in the biography of the chosen prophet.
- Mubarakpuri, Safiur **Rahman**. Ar-Raheeq Al-Makhtum
- Saadi. (1420 AH). Facilitating the noble Rahman in the interpretation of the words of Manan.
- Sheikh, Abdullah. (1419 AH). Tamolat Daweyah fi Al-Sunnah.
- Tabari. (1422 AH). Jami al-Bayan interpretation of the verse of the Qur'an.